فلننظر إلى بعض الظواهر الأدبية والفنية. يبدأ تاريخ الأدب الغربي الحديث بالنزعة الإنسانية، التي تعني حلول اللوجوس في الإنسان فيصبح مركز الكون، ولذا نجد أن الأدب الغربي حتى بداية القرن العشرين يتسم في مجموعه بوجود شخصيات لها أبعاد بطولية أو إنسانية مركبة، ثم تتزايد معدلات الحلول ويحل اللوجوس في كل من الإنسان والطبيعة، ثم في الطبيعة/ المادة وحسب، فيختفي الأبطال تماماً، ويختفي الإنسان الإنسان، ويظهر بدلاً منه «الرجال الجوف» الذين يعيشون في «الأرض الخراب» . . أرض مجدبة، ويتحركون بلا اتجاه مثل الذرات المتناثرة، في عزلة قاتلة، خاضعين في الوقت ذاته لحتميات عديدة صارمة. ويكتب كافكا قصصه حيث يخضع الإنسان تماماً إلى حتميات لا يفهم كنهها، فيتحول إلى صرصار ويُحاكم ويُعدم لسبب لا يعرفه. ثم يأتي مسرح العبث حيث تجلس الشخصيات في إحدى المسرحيات في صندوق قمامة في انتظار جودو الذي لا يأتي. ثم يكتب أنطوان أرتو (صاحب مسرح القسوة) قصيدة عبارة عن أصوات خالصة بلا معنى، دال ملتصق تماماً بمدلوله. ألا يمكن القول بأن تحوُّل الإنسان إلى ذرات متناثرة، ثم إلى صرصار وجلوسه في صندوق قمامة ينتظر من لا يجيء، وخضوعه للحتميات المختلفة، وتحول اللغة الإنسانية إلى مجرد أصوات لا مرجعية لها ـ هي عملية تفكيك لهذا الإنسان ؟

ولا يختلف الأمر كثيراً في عالم الفنون التشكيلية، إذ ظل الفن الغربي منذ عصر النهضة متماسكاً يحاكي شيئاً ما، في الطبيعة المادية أو الإنسانية. ولكن مع بداية القرن العشرين يظهر الواقع الإنساني والطبيعي في لوحات الفنانين على هيئة مكعبات ومربعات ودوائر وألوان متداخلة (في آخر عرض للوحات موندريان في التيت جاليري [١٩٩٦] في لندن، والذي كان يهدف إلى توضيح تطوره، تتضح هذه النزعة بشكل جلي. يبدأ المعرض بمنظر طبيعي فيه أشجار ومنازل، وينتهي بلوحة «متأيقنة» تماماً لا تشير إلى شيء خارجها، فهي مكونة من أربعة مربعات وخطين : واحد أحمر، والآخر أزرق. وهي لوحة في غاية الجمال، ولكننا هنا